ولا ريـب في أن كلـمات الغلاييـني التي تعبر عـن مشروعها الإصلاحي المستمد من استقراء دقيق للمجتمع وأزماته واحتياجاته، أبلغ من أي تعليق. الأمر الذي يقطع بأننا لسـنا في حاجـة لتجديد الخطاب الإصلاحي، بل نحن أحوج ما نكون إلى إرادة فاعلة لتطبيق مثل هذه الخطابات التي طالما أهملناها على الرغم من حملها على أرفف مكتباتنا.

❑❑❑

بناء الفرد أولاً

لم يغفـل التربويون المحدثون بداية من رفاعة الطهطاوي إلى أحمد أمين وعبدالعزيـز جاويـش وغيرهم مـن اللذين اجتهدوا في وضع الأسـس التي ينبغي أن تتوفر في المصلحين التربويين من جهة والبرامج التعليمية من جهة أخـرى، أساسـين هما الحريـة والإرادة الفاعلـة، وكلاهما يجـب أن ينبع من قناعات الأفراد ثم يشـاع في الجمهور فتعتاد الأمة على ممارستهما وتألفهما في كل شئون المجتمع والسياسة والعلم. الأمر الذي كان وراء اهتمام مصطفى الغلاييني بترسـيخ هذين الأساسـين في مشروعه التعليمي والتربوي، إذ كان يعتقد مع «أبو يوسـف النمري المعروف بـ ابن عبدالبر»[1] (978 - 1071م) أن النقـد والاجتهـاد والإبداع يتعـذر وجودهم في المجتمعات الاسـتبدادية أو الرجعيـة، فجميعهـم مخاض العقل الحر الذي لا يعصف به سـلطان جائر أو يخـرس صرير قلمه عصابة من المأجوريـن والمتعالمين. كما أن الإصلاح

(1) ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله، دار بن الجوزي، د.ت، ص 401، ص442، ص539، ص610، ص844

لا يمكنه الاعتماد على خطابات النصح والوعظ لمجابهة الفساد أو شحذ الهمم للعمل والبناء، بل الإرادة الفاعلة التي يجب تربية النشء عليها، فاحترام النظم والقوانين والعزوف عن منطق التحايل عليها والتصميم على فعل ما ينبغي فعله لا سبيل إلى تحقيقه سوى بإرادة واعية قانعة بأن سعيها لبلوغ الحق وتفعيل الأصلح واجب لا فكاك منه وإلزام والتزام لا يمكن الجنوح عنه.

فعن حرية الرأي وأصالة الاجتهاد يرى مفكرنا أن أصوب الآراء هي التي يهتدي إليها المرء بعد تدبر للواقع وانتخاب الأصلح من الحلول المقترحة ثم ترجيح ما يستحدث من رؤى والإصرار على تطبيقه ما دام هو الأجدر بحل المشكلة أو المنقذ من كبوة أو المعالج لنقص، دون أدنى تحيز للرأي الذي ألفناه والحكم الذي اعتدناه ويقول «إن أولى بالاجتهاد الفكري أن يرجع عنه صاحبه حين ظهور غيره أجلى منه»(1)، ويستشهد في هذا السياق بسنة أكابر الفقهاء الذين كانوا ينصحون تلاميذهم بعدم كتابة فتاويهم وحفظها على أنها صكوك مقدسة، وإنما يُكتب الحديث وتدون الواقعة. ويحتج بالنص الواضح قطعي الثبوت والدلالة «فلعل الرأي الذي يفتون به اليوم يرجعون عنه غدا».

وعن كبار العظاميين أصحاب الجاه والنفوذ ونظرتهم الدونية للفقراء والمعدمين في مجتمعاتهم: - يقول «ماذا يفيدك أن لو حييت حياة الملوك، وأنت غير مالك نفسك؟ بل ماذا تنتفع أمتك من وجودك، إذا كنت لا تحسن إليها؟ أتظن أن أموالك تزينك وأن ملبسك يعليك وحسن هيئتك تسميك؟

---

(1) المرجع نفسه، صـ18.

إنك إذًا لمن المخطئين. أتزعم أن الفقير صاحب الخلق العظيم أقل منك مقامًا وأدنى منزلة؟ إنك إذًا لمن الظالمين... خُلقت لعمارة الأرض وحسن السيرة في مناكبها خُلقت لتكون خليفة الله فيها. أهكذا تكون عمارتها؟ وهل بهذه الأعمال الشائنة تتولى خلافتها؟ ما بهذا أمرنا ولا لمثل ذلك خُلقنا!... فهل أنت أيها الإنسان يا من خُلقت لعمارة الأرض يا من وُجدت لتكون خليفة الله فيها، تعمل بمقتضى صحة الله في الأكوان لتصح خلافتك عليها وتكون عامرًا لها؟؟ أهلها جّوع وقاطنوها جهلاء، فهم يأكلون بجهلهم لحوم إخوانهم ويخربون بسوء عملهم ما أمر الله بعمارته، وأنت أنت قادر على تعليمهم و إطعامهم، وتدبير أمورهم والنظر في إصلاح شئونهم».(1)

ويحذر مفكرنا من غضبة المعوذين والجهلاء والمهمشين مبينًا أن رعاية الأغنياء لهم لا تعد من الفضائل التي حس عليها الشرع والمستحقات الواجبة عليهم أداءها فحسب، بل أنه يرى في رعايتهم شكلا من أشكال الأمن الاجتماعي فلا يعقل أن يسيء المحتاج لمن أعانه وعاله. كما أن التكافل الاجتماعي يعد إحدى آليات الحد من الفساد في كل صوره بداية من الانتهازية ونهاية بالرشوة والعنف وجرائم السرقة والحقد والكراهية التي تؤدي إلى الخيانة والغدر. ومن أقواله «فأغنياؤنا عباد أموال، وعلماؤنا خدام أقوال، وحكامنا رواد آمال، وقليل من هؤلاء وأولئك من يجود لمنفعة الأمة ويعمل بما يعلم ويحكم بما يوجبه الحق ويمليه عليه الوجدان».(2)

ثم يعود ويؤكد أن خلاص الأمة في حسن تربية أبنائها وبذل الجهد

---

(1) المرجع نفسه، صـ33 - 35.

(2) المرجع نفسه، صـ40.

والمـال والطاقـة في ترويـض الأنفـس وترقيـة الأذواق وتهذيـب الأخلاق وتقويـم العوائد، ولا ينبغي على الحكام - عنده - الاسـتخفاف بهذه الحكمة المجربة والانصراف إلى دونها من مسـالك لإصلاح المجتمع. فإن كل سـبيل غايتـه العلـم والمدنية والقـوة والمنعة قوامـه التربية الصحيحـة، لا للنشء وحدهم بل لجميع أفراد الأمة بمختلف أعمارهم، بداية من البيت حيث الأمة المعدة لذلك ثم المدرسـة ومنابر التثقيف وأجهزة الإعلام وسلوك قادة الرأي وانتهاء باحترام القوانين، ويقول «فعلى التربية الحقة سـعادة الأمم وفلاحها، وشـقاؤها وانخذالها. فمتى كانت التربية صحيحـة في أمة من الأمم، رفعتها مـن وهاد التأخـر إلى ذروة الفلاح والعكس بالعكس. وعـلى مقدار التربية تكون تجلية الأقوام في مضمار هذه الحياة. فما من أمة وجدت التربية الحقة في قلـوب أبنائها متسـعًا إلا بلغوا مـا يأملون من رفاه العيش وسـعادة الحياة. وبقـدر التربيـة يكون في الأمم الرجـال المفكرون الذين يبذلون وسـعهم، وينفدون مجهودهم لترقية أمتهم وأوطانهم».[1]

ويوضـح مفكرنا أن العلـة الحقيقيـة وراء أفول نجم حضارتنـا العربية الإسـلامية لا يرجع إلى ضعـف حكامها وقلة مواردهـا الاقتصادية أو وهن جيوشها وغيبة علماؤها فحسب، فمثل هذه الآفات - عنده - ليست إلا عوارض وأعراض لداء عضال أو نتائج لانحطاط المجتمعات المتمثل في فساد التربية. والأدلة كثيرة - عنده - على صدق هذه الحقيقة، فالدولة العثمانية لم يسقطها سـوى تفشي الظلم والعنصرية والأنانية والاسـتبداد والعنف فيها، وأُنتزع التسـامح والإحسـان والعفة والحياء وحب العلم وأهله والعدل وقسطاسـه

(1) المرجع نفسه، صـ43.

من قلوب العامة قبل الخاصة. ولما نخر سوس فساد التربية والأخلاق تمكن منها الاضمحلال فوهنت فتكالب عليها الطامعون سلبًا و إذلالاً بعد عزة، فيؤكد مع الشيخ حسن الطويل[1] (1834 - 1899م) على أن التربية هي منار التقدم، ورائد الفلاح لكل أمة تريد أن تربأ بنفسها أن تكون خاملة الذكر، أو تكون مع الهالكين.

ويحذر مفكرنا من مواطن الإجبار والعنف والاستبداد في برامجنا التربوية، ولاسيما مع النشء فالترغيب والتحبيب والتحلية والتخلية والتشجيع للاقتداء بأفاضل الرجال والنساء هو الطريق الأمثل للتعلم، ذلك فضلاً عن تعويدهم على التعاون فيما بينهم وغرس فيهم روح الولاء والانتماء لأوطانهم وتحليتهم بروح التسامح في النقاش واللعب والتساجل. وعليه لا ننتظر ممن تربى في بيئة استبدادية إلا الكذب والرياء والنفاق والتجبر والجحود، فهو يتفق مع ابن الجوزي[2] (1116 - 1201 م) على أن (التعليم أمر مهم جليل القدر عظيم الفائدة، ولكن التربية أشرف وأنبل وأعظم وأجل، فإن العاقل الخبير، والناقد البصير، يرى من نفسه ارتياحا لقوم حسنت تربيتهم، ونبلت أخلاقهم، وكرمت نفوسهم ولو كانوا غير متعلمين) - وهو يتفق في ذلك مع أكابر المصلحين بداية من رفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق وعلي مبارك وبطرس البستاني وحسين الجسر والكواكبي ولطفي

(1) حسن الطويل: الغاية من التربية، مقال في كتاب (تقاريظ لجمع من الفضلاء على القول المنتخب في التربية والأدب)، المطبعة الأميرية ببولاق، الطبعة الأولى، 1309هـ، ص7.

(2) ابن الجوزي: نصيحة الولد، مكتبة الإمام البخاري، مصر، الطبعة الأولى، 1412، ص61 - وما بعدها.

السـيد وأحمد أمين والمنفلوطي وزكي مبارك - . ولا يعني ذلك أن مفكرنا ومن سـار على دربه يهملون من شـأن العلـم وتحصيل المعارف والفنـون والتزود بالخبرات، بل إنه يرى أن كل ذلك من دعائم العمران والتقدم والتمدن لكنه لا يسـتقيم دون قاعدة راسـخة من التربية الخلقية السـليمة. ويعني ذلك أن الغلاييـني كان تطبيقيًـا في نظرته للأخـلاق، فها هو يكـرر «ليس المراد مما قدمناه إنكار مزية العلم والتعليم، حاشـا لله أن أكون من الجاهلين، فالعلم من أقوى دعائم المدنية وأقوى أسـباب الرقـي في معارج الحضارة والعمران. وإنمـا القصـد أن التربية والأخـلاق ومعرفة الواجب خير مـن العلم المجرد عـن التهذيب والآداب والأخـلاق الفاضلة، وهذا أمر لا ينكـره عاقل، وما أحلاهمـا إذا اجتمعـا في المرء... فتعويد الأحداث عـلى العمل بالواجب منذ الصغـر يربي في نفوسـهم تلـك العاطفة التـي نريدها، وذلك الشـعور الذي نتطلبه. فالتربية في الصغر كالنقش في الحجر»[1]. ويستشـهد في هذا السياق بمقولـة أبي حامد الغزالي «إن الولد أمانة عند والديـه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسـة خالية عن كل نقش وصورة، فإن عُود الخير وعُلمه نشـأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة وشـاركه في ثوابه أبواه وكل معلّم ومؤدّب. وإن عُود الشر وأُهمل شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة وليه والقيّم عليه»[2].

كما يحذر مفكرنا من مخاطبة الناس بما لا يطيقون فهمه وينهى المعلم من إلقاء المعارف والحكم في أذهانٍ قاصرة أو شـاردة أو نفوس يغلب عليها الشر وكارهـة للعلـم، ولعله تأثر فيما ذهب إليه بما جـاء في الأثر «لا تعلموا أولاد

(1) المرجع نفسه، صـ48.

(2) أبوحامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت، ج2، صـ578.

السِّفْلة العلم فإن علمتموهم فلا تولوهم القضاء والولاية»[1] لأنهم إذا تعلموا أي أصبحوا ذوو نفوذ ومناصب نتيجة لهذا التعلم اجتهدوا في إذلال الشرفاء، وما أورده الماوردي «لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا، ولا تضعوه في غير أهله فتأثموا».[2] والجدير بالإشارة أن المقصود بالسفلة في هذا السياق لا يعني أبناء الفقراء أو المعدمين بل أولئك الذين تمكنت الرذائل من أنفسهم والأحقاد من سلوكهم والعناد من أذهانهم إلى حد لا تنفع معه تعلم الحكمة أو الالتزام بالأدب أو الانحياز للجميل من الخصال.

وإذا ما نظرنا اليوم لسلوك شبيبتنا المتطرف وما طرأ عليه من السفالة والابتذال وعدم الإقبال على العلم والتعلق بالشهوات والغلو في التعصب وتفضيل العنف على اللين والهمجية على النظام وغير ذلك من مظاهر الانحطاط، سوف ندرك مدى عمق تحليلات مفكرنا ووقوفه على الدواء الشافي من تلك الشرور التي حاقت بهم فلوثت حياتنا الاجتماعية والسياسية والعلمية والتربوية والأخلاقية. وليس أدل على ذلك من أثر كتاباته في برامج التربويين المعاصرين في العالم الإسلامي.

ويتعرض الغلاييني متأثرًا بأبي بكر الآجري (877 - 970م)[3] إلى قضية آداب المهنة مبينا ضرورة تحلي المربيين والمعلمين بمكارم الأخلاق، أي أن السلوك القويم بالنسبة للمربي والمعلم أضحى عنده من مصوغات التعيين

(1) عطية صقر: الفتاوى، دار الإفتاء المصرية، مايو 1997م.

(2) الماوردي: أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، لبنان، 1987م، ص73.

(3) أبي بكر الآجري: أخلاق العلماء، البحوث العلمية والإفتاء، السعودية، 1978م، ص ص46 - 56.

ومتطلبات المهنة. فهو يحذر من ترك مسـئولية تربية الأبناء حديثي السن إلى مـن لا تتوفر فيهـم دماثة الخلق وفضيلة الشرف والعفة والتسـامح والصدق والعدالة، مؤكدًا مع محمد علي الشوكاني[1] على أن السفالة والوضاعة وغلظة الطبـاع لا ينجم عنهـا إلا الشر ولا يعيـش في كنفها إلا الجبابـرة والمجرمين والإرهابيين. كما ناشـد الآباء بوصفهما المربيـين الأول، الحرص على تعويد أبناءهـم السـلوك الحسـن بمنحى عمـلي، أي إنهـم لا يرتكبون مـن الأفعال والخصـال ما ينهون أبناءهم عنه (فلا يرددون أمامهم ألفاظ الفحش والبذاء وكلـمات التخويـف والتهويـل كالبعبع والجـن والعفاريت وغـير ذلك مما يحدث في نفوس النبت أثرا سيئا لا يمحوه كرور الأعوام).

❑❑❑

الأخلاق والتفكير الناقد

ينتقل الغلاييني إلى مجتمع المدرسة مبينًا مع (ي دني)[2] أن الأخلاق المهنية هي الدسـتور المراد تطبيقه على كل المشـتغلين بالعملية التعليمية، بداية من المعلم ومرورًا بالطلاب وانتهاءً بالعمال والخدم، فينبغي عليهم جميعًا الالتزام بالأخلاقيات والآداب التي لا يمكن فصلها عن طبيعة عملهم تلك التي تفرض عليهـم الانضباط وحسـن المعـاشرة والرفـق في التعامل واللـين في المخاطبة والأدب في المحـاورة. وكأن الغلاييني اسـتشرف ما تعانيه مدارسـنا اليوم من مظاهر الانحطاط (بذاءة المعلمين والمتعلمين، التحرش، العنف، التهرب من

(1) محمد علي الشوكاني: أدب الطلب ومنتهى الأرب، ص91.
(2) ي دني: أصول الأخلاق، ترجمة إبراهيم رمزي، المطبعة السلفية، مصر، 1925.